جهود الإمام الشافعي في الدعوة

الدكتور: أكرم كساب

الأمين العام لرابطة تلاميذ القرضاوي

عضو المكتب التنفيذي لرابطة علماء أهل السنة

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأزكى صلوات الله وتسليماته على المبعوث رحمة للعالمين وسيدا للأولين والآخرين، وإماما للأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وأزواجه أمهات المؤمنين...

أما بعد،،

فإن هذا الدين العظيم قدّر الله له البقاء، وجعل بقاءه ببقاء ثلة مؤمنة تحمل هذا الدين؛"تنفي عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتاويل الجاهلين[1]"، وعلى رأس هذه الثلة يأتي الأئمة الأربعة، وفي مقدمتهم يأتي محمد بن إدريس الشافعي، والذي عُدّ كواحد من مجددي هذا الدين. والقارئ لحياة الإمام الشافعي رحمه الله يرى أنه كان رجلا موفقا، ساق الله له من الأقدار ما يؤهله لإمامة الناس في حياته، وإتباعهم له بعد مماته.

ومثل هذه الشخصية الربانية المعطاءة بحاجة إلى دراسات متجددة، تجلي للأمة –شيبا وشبابا ذكورا وإناثا صغارا وكبارا– ما جمعته هذه الشخصية من فضائل ومآثر، وما قدمته من علم وعمل. وقد أحسنت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى في غزة هاشم بفلسطين، أن تقيم مؤتمرا علميا عن هذا الجبل الأشم، لترد للإمام بعض فضله.

وقد شرفت بالمشاركة في هذا المؤتمر العلمي الماتع، في بحثي هذا، تحت عنوان: (دور الإمام الشافعي في الدعوة)، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

وقد احتوت المقدمة خطة البحث ومنهجيته.

وجاء التمهيد في بيان العلاقة بين كل من الفقه والدعوة، وكذلك بين الفقيه والداعية.

وجاء المبحث الأول مبينا لأهم المواهب والأدوات التي كانت سببا في امتلاك الشافعي ناصية الفقه والدعوة إلى الله تعالى.

---

١ جاء في الحديث:"يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين رواه البيهقي في الكبرى (٣٥٣/١٠) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، والطبراني في مسند الشاميين (٣٤٤/١) عن أبي هريرة، وتمام في فوائده (٨٩٩) عن ابن عمر، وقال الهيثمي: رواه البزار وفيه عمرو بن خالد القرشي كذبه يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ونسبه إلى الوضع (٣٥٩/١) قال صاحب كنز العمال: قال الخطيب: سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث؛ وقيل له: كأنه كلام موضوع؟! قال: لا. هو صحيح، سمعته من غير واحد (١٠/ص ٣١٦).

والمبحث الثاني: جعلته للحديث عن وسائل وأساليب الشافعي في الدعوة إلى الله تعالى.

والمبحث الثالث: فكان للحديث عن مجالات الشافعي الدعوية.

والمبحث الرابع: فجاء ليوضح أثر الشافعي في الدعوة إلى الله تعالى.

ثم تلا ذلك الخاتمة، وضمنتها ملخصا لهم ما جاء في البحث من نتائج وتوصيات.

وأخيرا: فأسأل الله جلّ وعلا أن يبارك في القائمين على هذا المؤتمر، وأن ينفع بهذه الكلمات كاتبها وقارئها، والله الموفق لكل خير، وهو حسبي ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

تمهيد

بين الفقه والدعوة والفقيه والداعية

هناك علاقة ترابط وثيق بين الفقه والدعوة، فلا يمكن أن تنفك الدعوة عن الفقه، ولا الفقه عن الدعوة، ومحاولة الفصل بينهما محاولة فاشلة، ومن ثمّ فإن دعوى أن فلانا من الناس داعية ولا علاقة له بالفقه، أو أن فلانا فقيها ولا علاقة له بالدعوة كلام عار من الصحة تماما. إذ كيف يتصور أن يكون المرء داعيا إلى الله دون أن يكون لديه بعض الفقه، وكيف يتصور أن يكون المرء فقيها في دين الله ولا يعدّ داعيا إلى الله؟!

إن التصدي لدعوة الناس إلى الله سبحانه وإن لم يختص بها الفقهاء فإنه يحتم على هذا المتصدي أن يكون على فقه بما يدعو إليه، وهذا الفقه هو البصيرة التي تجعل المرء على نور وهدى من دعوته، قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، يقول صاحب الظلال: ((فنحن على هدى من الله ونور. نعرف طريقنا جيداً، ونسير فيها على بصر وإدراك ومعرفة، لا نخبط ولا نتحسس، ولا نحدس. فهو اليقين البصير المستنير. ننزه الله- سبحانه- عما لا يليق بألوهيته[١])).

ولئن شاع في الآونة الآخيرة عن البعض أنهم دعاة لا يفتون، فهذا خطأ جسيم، لأنهم يفتون دون أن يشعروا، فاستخدامهم لوسيلة ما لإبلاغ دعوتهم هو إفتاء بجواز استخدام هذه الوسيلة، وتركهم لوسيلة ما معناه حرمة هذه الوسيلة، ولهذا فإن الفقه يعد عاصما للداعية إلى الله من الوقوع في الزلل، أو الجنوح إلى الخطل، وفي المسند عند أحمد: عن عَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، قَالَ: إِنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ، يُخْبِرُ: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَهُ جُرْحٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ أَصَابَهُ احْتِلامٌ، فَأُمِرَ

١ في ظلال القرآن/سيد قطب/ط دار الشروق/ط٩ ط ١٩٨٠م/ج٤/ص ٢٠٣٤.

بِالاغْتِسَالِ، فَمَاتَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:"قَتَلُوهُ قَتَلَهُمِ اللهُ، أَلَمْ يَكُنْ شِفَاءَ الْعِيِّ السُّؤَالُ[1]".

وخلاصة القول في هذا المسألة: أن الدعوة هي التطبيق العملي للفقه، فلا دعوة بغير فقه، ولا فقه دون دعوة الناس إليه. فدعوة الناس دون فقه يتجدد عمل قد يضر، وتعلم الفقه دون دعوة الناس إليه مشغلة لا جدوى منها.

وفي الصنف الأول قال عمربن عبد العزيز: ومن عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح[2].

وفي الصنف الثاني قال سيد قطب: ((إن هنالك مسافة شاسعة بين فقه الحركة، وفقه الأوراق! إن فقه الأوراق يغفل الحركة ومقتضياتها من حسابه، لأنه لا يزاولها ولا يتذوقها! أما فقه الحركة فيرى هذا الدين وهو يواجه الجاهلية، خطوة خطوة، ومرحلة مرحلة، وموقفاً وقفا. ويراه وهو يشرع أحكامه في مواجهة الواقع المتحرك، بحيث تجيء مكافئة لهذا الواقع وحاكمة عليه ومتجددة بتجدده كذلك![3])).

ومن ثم فإن أمتنا بحاجة إلى المزج بين الفقه والدعوة، فالفقيه الداعية أو الداعية الفقيه هو الذي يستطيع تحديد الداء وتشخيص الدواء، وهو المتمثل في الدعوة إلى الله (بالحكمة) و(على بصيرة)، وأحسب أن الشافعي كان أنموذجا لهذا المزج المطلوب.

المبحث الأول

مواهب وأدوات الشافعي الدعوية

مدخل:

الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى العديد من المؤهلات والأدوات الدعوية التي تدفع بصاحبها إلى تبني الصحيح من الآراء والأقوال، واستخدام المشروع من الوسائل والأساليب، وتجنب المحرم من الأهداف والغايات.

---

١ رواه أحمد في المسند (١٧٣/٥) وقال محققو المسند: حسن، وهذا سند رجاله ثقات رجال الشيخين إلا أن فيه انقطاعاً بين الأوزاعي وبين عطاء بن أبي رباح.

٢ رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٧٥/٧).

٣ في ظلال القرآن/مرجع سابق/ج٣/ص ١٧٤٣.

وأعني بالمواهب: تلك المنح الإلهية التي يمن الله بها على المرء، فيحسن استخدامها في عرض دعوته، وإلقاء حجته. كطلاقة اللسان، وقوة الحافظة، وسرعة البديهة.

وأما الأدوات: فأعني بها تلك الحصيلة المتينة من المعارف والعلوم التي تعين المرء على استيعاب دعوته، وتأدية رسالته.

والفرق بين المواهب والأدوات: أن المواهب في أصلها منح إلاهية وعطايا ربانية يعطاها العبد، وهو قادر على شكرها بتمنيتها. أما الأدوات فالغالب عليها الاكتساب.

والشافعي رحمه الله جمع من المواهب والأدوات ما يؤهله ليكون داعية حق، ولسان صدق، وهذا أبو ثور يقول: ((من زعم أنه رأى مثل محمد بن إدريس في علمه وفصاحته ومعرفته وثباته وتمكنه فقد كذب، كان منقطع القرين في حياته، فلما مضى لسبيله لم يعتض منه[1])). وقال يونس بن عبد الأعلى: ((لو جمعت أمة لوسعهم عقل الشافعي[2])).

وقد أحسن أبو زهرة حين قال: ((لقد آتى الله الشافعي حظا من المواهب يجعله في الذروة من قادة الفكر وزعماء الآراء[3])).

المطلب الأول: مواهب الشافعي الدعوية وأدواته إجمالا:

وقبل أن أفصل في مواهب الشافعي وأدواته الدعوية – والفقهية كذلك– أود أن أسجل هنا كلاما رئعا لإمامين عظيمين عرفهما الفقه الإسلامي. أحدهما نشأ في أحضان المدرسة الشافعية، لكنه استقل بمذهب له قواعده وأصوله، وهو داود الظاهري، والثاني: ثمرة من ثمرات الشافعي، وجهبذ من جهابذة مدرسته، وهو الإمام النووي.

أما داود فقال: ((اجتمع للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره:

١. منها سخاوة النفس.

٢. ومنها معرفته بصحة الحديث وسقمه.

٣. ومنها معرفته بناسخ الحديث ومنسوخه.

---

١ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ابن خلكان/ت: إحسان عباس/ط دار صادر بيروت/(١٦٥/٤).

٢ مرآة الجنان وعبرة اليقظان/عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي/ط دار الكتب العلمية، بيروت/ط أولى/ط ١٩٩٧م/(١٩/٢).

٣ الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/محمد أبو زهرة/ط دار الفكر العربي/ط أولى ط ١٩٧٨م/ص ٣٦.

٤. ومنها حفظه لكتاب الله وحفظه لأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفته بسير النبي صلى الله عليه وسلم وبسير خلفائه.
٥. ومنها كشفه لتمويه مخالفيه.
٦. ومنها تأليف الكتب القديمة والجديدة.
٧. ومنها ما اتفق له من الأصحاب والتلامذة[١])).

وأما النووي فقال متحدثا عن شيخه ومواهبه التي مكنته من البحث والتأليف، والكتابة والتصنيف، والتعليم والتدريس، فيقول: ((اعلم أنه، رضى الله عنه كان من أنواع المحاسن بالمحل الأعلى، والمقام الأسنى؛ لما جمعه الله الكريم له من الخيرات، ووفقه له من جميل الصفات، وسهله عليه من أنواع المكرمات، فمن ذلك:

١. أنه جاء بعد أن مهدت الكتب وصنفت وقررت الأحكام ونقحت، فنظر فى مذاهب المتقدمين، وأخذ من الأئمة المبرزين، وناظر الحذاق المتقنين، فبحث مذاهبهم وسبرها وتحققها وخبرها، فلخص منها طريقة جامعة للكتاب والسنة والإجماع والقياس...
٢. كمال قوته وعلو همته وبراعته فى جميع أنواع الفنون، واضطلاعه منها أشد اضطلاع:
   - وهو المبرز فى الاستنباط من الكتاب والسنة.
   - البارع فى معرفة الناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين، والخاص والعام، وغيرها من تقاسيم الخطاب، فلم يسبقه أحد إلى فتح هذا الباب...
   - وهو الذى لا يساوى، بل لا يدانى فى معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ورد بعضها إلى بعض.
   - وهو الإمام الحجة فى لغة العرب ونحوهم.
   - وهو الذى قلد المنن الجسيمة أهل الآثار، وحملة الحديث، ونقلة الأخبار بتوقيفه إياهم على معانى السنن، وتبيينه وقذفه بالحق على باطل مخالفى السنن..
   - وهو الذي مكنه الله تعالى من أنواع العلوم، حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون، واعترف بتبريزه، وأذعن الموافقون والمخالفون.
   - ومن ذلك تمسكه بالأحاديث الصحيحة، وإعراضه عن الواهية والضعيفة[١])).

١ توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس/ابن حجر/ط دار الكتب العلمية/ط ١٩٨٦م/ص ٦١، ومعجم الأدباء/ياقوت الحموي/ط دار الغرب الإسلامي، بيروت/ط أولى ١٩٩٣ م/ (٢٤١١/٦).

المطلب الثاني: مواهب الشافعي الدعوية وأدواته تفصيلا:

ومن أهم مواهب الشافعي وأدواته الدعوية أذكر ما يلي:

أولا: فهم دقيق: تعد صفة الفهم من أعظم نعم الله تعالى على خلقه، وفي هذا يقول ابن القيم في كتابه القيم (إعلام الموقعين): ((صحة وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما[٢])).

والفهم الذي نعنيه ليس هو مجرد العلم، بل هو أرقى درجات العلم، فليس الفهم بكثرة الرواية والتحصيل بقدر ما هو عمق الدراية وإحسان التنزيل. والشافعي رحمه الله كان ذا فهم ثاقب، إذ لم يشغله علم الرواية عن علم الدراية، بل جمع بين الأمرين، فحاز الخيرين، فهو رحمه الله في فنّ الدراية ((لا يوازيه أحد ممن عاصره، وما فقهه واجتهاده وعلمه إلا فرع عن درايته، ونريد هنا من درايته: براعته في فهم النصوص وما ترمي إليه من غريب الحديث وغريب الكلام، وغوصه على ما خفي من المعاني، واستنباطه الحكم ما دقّ من دلالة السنة[٣])).

وقد أقرّ له إسحاق بن راهويه بهذا الفهم الثاقب، وذلك حين ناظره فغلبه الشافعي فقال إسحاق: ولو كنت قد أدركني هذا الفهم وأنا بحضرته لعرّفته ذاك، ثم نظرنا في كتبه فوجدنا الرجل من علماء هذه الأمة[٤].

إن خلاصة القول هنا: أن الشافعي رحمه الله كان ((عميق الفكرة بعيد الغوص لا يكتفي من الأمور بدراسة ظواهرها،بل يذهب إلى أعمق أغوارها، كان بعيد المدى في الفهم لا يقف عند حد حتى يصل إلى الحق كاملا فيما يراه، وكان يتجه في دراسته للحوادث وأحكامها إلى وضع ضوابط عامة لها، فكانت دراسته طلبا للكليات والنظريات العامة، لا دراسة جزئية فقط، ولا شك ان هذه الدراسة الكلية تحتاج إلى عقل أقوى وفكر أنفذ، وبصيرة نافذة، ولا تحتاج الدرسات الجزئية إلى مثل هذا[٥])).

ثانيا: إيمان عميق: لا يستطيع داعية مهما أوتي من المواهب والأدوات؛ أن يحصل النجاح في دعوته إن لم يكن على إيمان عميق بدعوته التي يدعو إليها، وبقدر إيمان الداعية بدعوته؛ بقدر ما

---

١ تهذيب الأسماء واللغات/النووي/ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان/(٤٩/١، ٥٠) بتصرف بسيط.

٢ إعلام الموقعين/الإمام ابن القيم/ط دار الكتب العلمية – بيروت/ط أولى ط ١٩٩١م/(ج١/ص ٨٧).

٣ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر/عبد الغني الدقر/ط دار القلم دمشق/ط ثالثة ط ١٩٨٧م/ص ٢١٠، ٢١١.

٤ معجم الأدباء/مرجع سابق/(٢٤٠٢/٦).

٥ الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/مرجع سابق/ص ٣٧.

يكتب له النجاح. هذا الإيمان هو: الذي يجعل الداعية متعالياً على كل مساومة، رافضاً لكل تنازل، متحملاً لكل أذى.

والشافعي رحمه الله كان ذا إيمان عميق، يعلن بما اعتقد مهما كلفه الأمر، فها هو يعلن مكانة الصديق ومنزلته، وأنه خير الأمة على الإطلاق، فإن لامه لائم أنشد:

إذا نحن فضلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوي الفضل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكر ذوي الفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما بحبهما حتى أوسد في الرمل[1]

ثالثا: عقيدة سليمة: الداعية الموفق هو الذي تقوم دعوته على أساس متين قوامه عقيدة سليمة راسخة لا تعرف الزيغ أو الضلال، والشافعي رحمه الله تعالى كان ذا عقيدة سليمة، من القرآن تتبع، ومن السنة تستمد، وبأقوال الصحابة والتابعين تهتدي، وقد سئل ابن تيمية عن عقيدة الشافعي فقال: ((اعتقاد الشافعي – رضي الله عنه – واعتقاد سلف الإسلام كمالك والثوري والأوزاعي وابن المبارك وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه؛ وهو اعتقاد المشايخ المقتدى بهم كالفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني وسهل بن عبد الله التستري وغيرهم. فإنه ليس بين هؤلاء الأئمة وأمثالهم نزاع في أصول الدين. وكذلك أبو حنيفة – رحمة الله عليه – فإن الاعتقاد الثابت عنه في التوحيد والقدر ونحو ذلك موافق لاعتقاد هؤلاء واعتقاد هؤلاء هو ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان وهو ما نطق به الكتاب والسنة[2])).

رابعا: خلق حسن. من أبرز صفات الداعية الناجح أن يؤتى خلقاً حميداً، ومن يؤته فقد أوتي خيراً كثيراً، ودعوة الداعية للناس ليست مجرد كلام يقال، أو ألفاظ تنمق، أو كلمات ترتب، فما أكثر أصحاب الألفاظ الجذلة، والعبارات الرصينة على مر التاريخ، ولكن فرق بين من يدعو بخلقه ولفظه، وبين من يدعو بلفظه وينهى خلقه ما أمر به لفظه.

وقد أصاب الشافعي من الأخلاق قدرا عظيما يغبط عليه، وهذا ما جعل مخالفيه يقدرون له خلقه النبيل، يقول يونس الصدفي: ((ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة[3]))، وقد

١ ديوان الإمام الشافعي/جمع وتحقيق: نعيم زرزور/ط دار الكتب العلمية/ط أولى ١٩٨٤م/ص ٨٩.
٢ مجموع الفتاوى/ابن تيمية/ط مجمع الملك فهد/ط ١٩٩٥م/(٢٥٦/٥).
٣ سير أعلام النبلاء/الذهبي/ط مؤسسة الرسالة/ط ثالثة ط ١٩٨٥م/(ج١٠/١٦).

ذكر صاحب كتاب (توالي التأسيس) أن ((غلاما حدثا دخل على الشافعي فسأله مسألة فأجابه الشافعي، فسأله أخرى، فقال الغلام: أخطأتَ، فقال الشافعي: أخطأتُ يا ابن أخي ما في كتابك، وأما الحق فلا[1])).

ومن عظيم خلقه رحمه الله؛ أنه كان يقدر مخالفه إن قبل بالحق، فيعظم الرجل في عينيه، يقول الشافعي: ((ما عرضت الحجة على أحد فيقبلها إلا عظم في عيني[2])).

وما أجمل ما قاله عنه يحيى بن معين حين سأله رجل فقال: ((يا أبا زكريا ما تقول في الشافعي قال: دع هذا عنك؛ لو كان الكذب له مطلقا لكانت مروءته تمنعه أن يكذب[3])).

خامسا: حافظة قوية: ومن الأمور التي ساعدت الشافعي في فقهه ودعوته؛ ما حباه الله به من حافظة قوية تحتفظ بما يستودع فيها، لا تخرم منه حرفا، ولا تزيد عليه آخر. لقد كان رحمه الله ((قوي المدارك، كان قويّا في كلّ قواه العقلية،كان حاضرَ البديهة تتثال عليه المعاني انثيالا في وقت الحاجة إليها، لم يكن به حُبسة فكرية[4])).

وقد أفادت هذه الحافظة الشافعي في صغره وكبره، أما في صغره فقد أعفته من أجرة معلم القرآن، يقول الربيع: ((سمعت الشافعي يقول: كنت أنا في الكتّاب أسمع المعلم يلقّن الصبيّ الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون أمليتهم فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم، قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: ما يحلّ لي أن آخذ منك شيئا[5])).

وأما في الكبر فقد أسعفته حافظته بالحجة القوية والبرهان الساطع عند مناظرة غيره، فكان الأحفظ والأوعى والأفهم فلم يغلبه أحد.

سادسا: ثقافة واسعة: لا يمكن أن يدخل امرؤ إلى ميدان الدعوة دون أن يكون له رصيد زاخر من العلم؛ يصونه من الزيغ أو الضلال، ويعصمه من التردي في براثن الهوى، ومفاوز الإفراط أو التفريط، وهذا يعني أن الداعية الحق ليس مجرد خطيب قوي الحنجرة جهوري الصوت، يؤثر في الناس بوعظه وصوته.

---

١ توالي التأسيس/مرجع سابق/ص ٦٤.

٢ المرجع السابق/ص ٦٤.

٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/أبو نعيم/ط دار السعادة القاهرة/ط ١٩٧٤م/(١٢٤/٩).

٤ الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/محمد أبو زهرة/ص ٣٦.

٥ معجم الأدباء/مرجع سابق/(٢٣٩٥/٦).

إن الأمة دائما بحاجة إلى داعية فقيه، يقوم مقام الطبيب الماهر والنطاسي البارع، الذي يحدد العرض ويداوي المرض، إنه الداعية ((الذي يعرف حقيقة الإسلام، ويعرف ما يجري في هذه الحياة، ولا يعيش منعزلاً عن عصره وما يدور فيه من تيارات وما يعتريه من مشكلات.. نحن نريد الداعية الذي يفقه أحكام الله الشرعية وسنن الله الكونية..[1])).

وهكذا كان الشافعي رحمه الله تعالى، فقد كان له في أنواع الثقافات قدم راسخ، وتبريز واضح. ومن أنواع الثقافة عند الشافعي أذكر ما يلي:

١ – **الثقافة الإسلامية:** وأعني هنا بالثقافة الإسلامية ما يتعلق بالقرآن وعلومه، والحديث وفنونه، والفقه وأصوله. والحق أن كل فرع من هذه الفروع يحتاج إلى صفحات وصفحات؛ بل ملازم ومجلدات، لكنني سأكتفي هنا إلى بعض الإشارات على هذا النحو.

أ – **القرآن وعلومه:** كان الشافعي رحمه الله في القرآن وعلومه حجة، إليه يرجع، وعنه ينقل. وقد بدأت علاقة الشافعي بالقرآن منذ نعومة أظفاره، حيث بدأ حفظ حدثا وأتمه والموطأ صغيرا، يقول المزني: ((سمعت الشافعي يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين[2])، وبدأت معارف الشافعي بالقرآن تزداد يوما بعد يوم، حتى قال يونس بن عبد الأعلى: ((كان الشافعي إذا أخذ في التفسير، كأنه شهد التنزيل[3])). ويونس يقول هذا بعد أن قال عن نفسه: ((كنت أولا أجالس أصحاب التفسير، وأناظر عليه[4])).

وقد سأله الرشيد عن علمه بالقرآن فقال: ((عن أي آية تسألني؟ عن محكمه، أم عن متشابهه؟ أم عن تقديمه؟ أم عن تأخيره؟ أم عن ناسخه؟ أم منسوخه؟ أم عن ما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته، أم عن ما ثبتت تلاوته وارتفع حكمه، أم عن ما ضربه الله مثلا؟ أم عن ما ضربه الله اعتبارا؟ أم عن ما أحصى فيه فعال الأمم السالفة؟ أم عن ما قصدنا الله به من فعله تحذيرا؟"قال: بم ذاك؟ حتى عد له الشافعي ثلاثة وسبعين حكما في القرآن...[5])).

---

١ لقاءات ومحاورات/يوسف القرضاوي/ط مكتبة وهبة القاهرة/ط أولى ط ١٩٩٢م/ج١/ص٤٨.

٢ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/١١).

٣ المرجع سابق (١٠/٨١).

٤ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٥٨.

٥ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٩/٨٧).

ب – الحديث وفنونه: يعدّ الشافعي رحمه الله إماما في الحديث كما هو إمام في الفقه، وقد عرف بأنه ((ناصر الحديث[1]))، وكانت علاقة الشافعي بالحديث مبكرا حيث أتم حفظ الموطأ قبل لقيا مالك، حفظه وهو ابن عشر[2].

وما يميز الشافعي في علاقته بالسنة جمعه بين علم الرواية والدراية، لذا فهو إلى فقهاء الحديث أقرب منه إلى المحدثين، وهذا لا يعني قلة روايته؛ وإنما يعني في المقام الأول فقهه ودرايته، وقد أحسن ابن حجر حين قال: ((كان الشافعي مكثرا من الحديث، ولم يكثر من الشيوخ كعادة أهل الحديث لإقباله على الاشتغال بالفقه حتى حصّل منه ما حصّل[3])).

ولقد برع الشافعي رحمه الله في خدمة السنة سندا ومتنا، وله في علوم السنة باع كبير، وإذا كانت الأمة قد أقرت للشافعي بالسبق في علم أصول الفقه، فإن القليل ((يعلم أنه أول من وضع ما يسمى بأصول الحديث أو ما يسميه المتأخرون"مصطلح الحديث"، فلقد وضع في هذا الفن مصطلحات كثيرة لم يسبق إليها[4]))، وقد أشار إلى ذلك السيوطي حين قال: ((فقد كان أكابر المحدثين يأتونه فيذاكرونه بأحاديث أشكلت عليهم، فيبين لهم ما أشكل، ويوقفهم على علل غامضة[5])).

وما أروع إجابته لهارون الرشيد حين قال له: ((وكيف بصرك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له الشافعي: إني لأعرف منها ما يخرج على وجه الإيجاب، ولا يجوز تركه، كما لا يجوز ترك ما أوجبه الله تعالى في القرآن، وما خرج على وجه التأديب، وما خرج على وجه الخاص لا يشرك فيه العام، وما خرج على وجه العموم يدخل فيه الخصوص، وما خرج جوابا عن سؤال سائل ليس لغيره استعماله، وما خرج منه ابتداء لازدحام العلوم في صدره، وما فعله في خاصة نفسه واقتدى به الخاصة والعامة، وما خص به نفسه دون الناس كلهم، مع ما لا ينبغي ذكره لأنه أسقطه عليه السلام عن الناس وسنه ذكرا...[6])).

---

١ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/٤٧).

٢ انظر: المرجع سابق (١٠/١١).

٣ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٥٣.

٤ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر/مرجع سابق/ص ٢٠٧.

٥ تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي/السيوطي/ط دار طيبة/(١/٨٣).

٦ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٩/٨٧).

ج – **الفقه وأصوله:** لا يستطيع أحد أن ينكر مكانة الشافعية في الفقه، بل ما لديه من الفقه ربما فاق ما لدى الكثيرين، ويرجع ذلك إلى إطلاعه على مختلف المدارس الفقهية، فقد جمع بين فقه مالك وفقه أبي حنيفة، يقول أبو الوليد المكي الفقيه موسى بن أبي الجارود: ((اجتمع له –أي الشافعي– علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك، حتى أصل الاصول، وقعد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف[١])).

أما أصول الفقه فلا يذكر هذا العلم إلا ويذكر معه الشافعي، فهو واضعه ومبتدعه بإجماع الأمة، وليس من أحد كتب في هذا العلم إلا وللشافعي عليه منة. يقول بدر الدين الزركشي: ((الشافعي أول من صنف في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القران، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، كتاب جماع العلم، وكتاب القياس[٢])).

إن هذا الكم الهائل من الثقافة الإسلامية كانت زادا كبيرا للشافعي في دعوته إلى الله تعالى، ومن يزعم الدعوة إلى الله ويتصدى لها دون أن يكون لديه رصيد ثقافي أصيل إنما هو متطفل على هذا الميدان الذي سلكه الأنبياء والمرسلون والصحابة والتابعون، إنه كمقاتل بغير سلاح، وكمسافر بغير زاد، وكسابح في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج، لا علم له بالسباحة ولم دراية له بالبحر وأحواله.

٢ – **الثقافة الأدبية واللغوية:** لم يشتهر إمام من الأئمة الأربعة –ولا حتى الثمانية– باللغة والشعر كما اشتهر الشافعي رحمه الله، لقد كان إماما في اللغة العربية كما كان إماما في الفقه، قال محمود المصري: سمعت ابن هشام يقول: ((جالست الشافعيّ زمانا فما سمعته تكلم بكلمة إذا اعتبرها المعتبر لا يجد كلمة في العربية أحسن منها[٣])). وفي الحلية عند أبي نعيم: ((أن يحيى بن هشام النحوي، يقول: طالت مجالستنا لمحمد بن إدريس الشافعي فما سمعت منه لحنة قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها[٤])). بل كان قوم من أهل العربية يختلفون إلى مجلس الشافعي فإذا سئلوا قالوا: نسمع لغة الشافعي[٥].

---

١ الرسالة/الشافعي/ ت: أحمد شاكر/ط مكتبة الحلبي، مصر/ط أولى ط ١٩٤٠م/ص ٧.

٢ نقلا عن: المرجع السابق/ص ١٣.

٣ معجم الأدباء/مرجع سابق/(٢٤٠٢/٦).

٤ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (١٢٨/٩).

٥ انظر: معجم الأدباء/مرجع سابق/(٢٤٠٢/٦).

ولما سأله الرشيد عن معرفته بالعربية قال: ((هي مبدؤنا وطباعنا بها قومت، وألسنتنا بها جرت، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة، وكذلك العربية لا تسلم إلا لأهلها، ولقد ولدت وما أعرف اللحن، فكنت كمن سلم من الداء ما سلم له الدواء، وعاش بكامل الهناء. وبذلك شهد لي القرآن: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ} [إبراهيم: ٤]، يعني قريشا – وأنت منهم وأنا منهم، يا أمير المؤمنين، والعنصر نظيف، والجرثومة منيعة شامخة، أنت أصل ونحن فرع وهو صلى الله عليه وسلم مفسر ومبين، به اجتمعت أحسابنا، فنحن بنو الإسلام، وبذلك ندعى وننسب"، فقال له الرشيد: صدقت، بارك الله فيك[١])).

وقد ترقّى الشافعي في لغته حتى صار إماما يستشهد بقوله أهل اللغة وأصحاب المعاجم، وها هم يستشهدون بآرائه ويخطئون من خطأه، وقد شهد بذلك نحوي عظيم هو ابن هشام المصري فقال: ((الشافعي كلامه لغة يحتجّ بها[٢])).

وقد استفاد الشافعي بثقافته اللغوية في دعوته إلى الله تعالى، إذ كانت لغته الرصينة، وأدبه الراقي وشعره المؤثر وسيلة جذب للمستمع، وعنصر تأثير في المتلقي، وطريقة سحرية تأخذ بلب المخالف، فيقر للشافعي بالفضل حتى وإن اختلف معه، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله تعالى.

٣ – الثقافة التاريخية: يحتاج الداعية في عدته الثقافية إلى إلمام أو معرفة على الأقل بالتاريخ وأحداثه، وأعني بالتاريخ هنا التاريخ الإنساني بكل تجاربه، والحاجة إلى التاريخ أكيدة؛ لأن العلماء من القديم يقررون أن أحداث التاريخ تتشابه وتتكرر، وقد قيل: ما أشبه الليلة بالبارحة.

والمقصود من دراسة التاريخ واستيعاب أحداثه ليس مجرد جمع الأحداث والوقائع، وإنما مع هذا الجمع يحتاج الداعية الأريب إلى نظرة متأنية في هذه الأحداث يستلهم من خلالها العبر والعظات، فيحسن التعامل مع الواقع، ويجيد استشراف المستقبل.

وقد كان الشافعي على دراية تامة بالتاريخ وأحداثه، قال مصعب بن عبد الله: ((ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعي[٣])).

---

١ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٩/٨٧).

٢ معجم الأدباء/مرجع سابق/(٦/٢٤٠٢).

٣ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/٧٤)، ومناقب الشافعي/البيهقي/ت: السيد أحمد صقر/ط دار التراث القاهرة/ ط أولى ١٩٧٠م/(١/٤٨٨).

وهذا ما جعل سامعه يتوهم أنها ربما صنعته، قال يونس الصدفي: ((كان الشافعي إذا أخذ في أيام الناس، قلت: هذه صناعته[1])).

وقد كان إتقان الشافعي للتاريخ والسير أمرا ملفتا للنظر حتى جاء ابن هشام يجالسه ويسائله، يقول المزني: ((قدم علينا الشافعي، فأتاه ابن هشام صاحب المغازي، فذاكره أنساب الرجال...[2])). ولما سأله الرشيد عن معرفته بالعرب قال: ((أما أنا فمن أضبط الناس لآبائها وجوامع أحسابها، وشوابك أنسابها، ومعرفة وقائعها، وحمل مغازيها في أزمنتها وكمية ملوكها وكيفية ملكها، وماهية مراتبها، وتكميل منازلها، وأندية عراضها ومنازلها...[3])).

وقد ذكر الشافعي أن سبب اهتمامه بالأخبار إنما هو الاستعانة به على الفقه[4].

٤ – **الثقافة الواقعية**[5]: كان من أدوات الشافعي ومؤهلاته الدعوية أيضا: ثقافته الواقعية، بمعنى أن الشافعي ذو ثقافة واسعة بواقع الحياة التي يعيشها، والمجتمع الذي يحيا فيه. فالشافعي لم يكتف بالثقافة الإسلامية ولا التاريخية ولا اللغوية.. ولكنه ضم إلى هذه الثقافات ثقافة أخرى وهي ثقافة الواقع الذي يعيشه، والعصر الذي وجد فيه.

والثقافة الواقعية –كما يقول القرضاوي–: ((هي الثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة، وما يدور به الفلك في دنيا الناس الآن، في داخل العالم الإسلامي وفي خارجه، فلا يكفي الداعية أن يكون قد حصل العلوم الإسلامية وجال في مراجع الأدب واللغة والتاريخ، وأخذ بحظه من العلوم الإنسانية ومن العلوم التجريبية، ولكنه مع هذا كله لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه، وما يقوم عليه من نظم، وما يسوده من مذاهب، وما يحركه من عوامل[6])).

إن هذه الثقافة الواقعية تجعل الداعية لا يجلس مراقباً من برج عاجي، لكنه جندي في ميدان المعركة، يقلب النظر هنا وهناك، ويرجع البصر كرتين، مراقباً حال أمته وما يحاك بها، أو يدبر لها بليل، ويعمل جاهدا على تغيير هذا الواقع من الأسوأ إلى الأقل سوءا، ومن السيء إلى

---

١ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (٧٤/١٠)، ومناقب البيهقي/مرجع سابق (٤٨٨/١).

٢ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (٧٤/١٠)، ومناقب البيهقي/مرجع سابق (٤٨٨/١).

٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٨٧/٩).

٤ انظر: سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (٧٤/١٠)، ومناقب البيهقي/مرجع سابق (٤٨٨/١).

٥ سيأتي الحديث في المبحث الثالث عن دور الشافعي في الرد على الفرق الضالة.

٦ ثقافة الداعية/يوسف القرضاوي/ط مكتبة وهبة/ط عاشرة ط ١٩٩٦م/ص ١١٩.

الحسن، ومن الحسن إلى الأحسن. وهكذا كان الشافعي رحمه الله. فدرس المذاهب السنية، وأخذ عن بعض علماء الشيعة الزيدية، وهو مقاتل بن سلميان، والذي يعد إماما في التفسير...[1].

ولا شك أن مثل هذه الثقافة الواسعة تنتج ثمرا بهيجا، وهكذا كان الشافعي، كثرة تلاميذ وأتباع، ونشر علم وهدى... وهذا ما سنوضحه في المبحث الرابع إن شاء الله تعالى.

المبحث الثاني

الوسائل والأساليب عند الشافعي في الدعوة

الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى العديد من الأساليب والوسائل، والداعية الناجح يستخدم ما عرف من وسائل وأساليب في عصره، ويستجد من الوسائل والأساليب ما يخدم فكرته، ويوصل رسالته. وقد استخدم الشافعي في مجاله الدعوي العديد من الوسائل والأساليب، وسأذكرها في المطالب التالية:

المطلب الأول: الفتاوى:

كان الشافعي رحمه الله إماما في الفقه والفتوى كما هو معلوم، وكان الناس في أصقاع الأرض ينظرون إلى فتواه نظرة إعجاب وتقدير لما له من منزلة في قلوبهم.

والفتوى عند الشافعي ليست مجرد حكم يخبر به، وإنما هي علم يؤصله، وحكم يقرره، ووسيلة يدعو بها إلى الله تعالى، هكذا كان الشافعي، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة. وقد بلغ الشافعي مرتبة الإفتاء في مرحلة مبكرة من العمر؛ يقول الحميدي: ((سمعت الزنجي مسلم بن خالد يقول للشافعي: أفت يا أبا عبد الله، فقد والله آن لك، أن تفتي. وهو ابن خمس عشرة سنة[2])).

ولهذا آلت إليه الفتوى في الحرم، وكان امتدادا لمدرسة ابن عباس، وفي هذا يقول أحمد بن محمد الشافعي: كانت الحلقة في الفتيا بمكة في المسجد الحرام لابن عباس وبعد ابن عباس لعطاء، وبعد عطاء لعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وبعد ابن جريج لمسلم بن خالد الزنجي، وبعد مسلم لسعيد بن سالم القداح، وبعد سعيد لمحمد بن إدريس، وهو شاب[3])).

---

١ انظر: الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/مرجع سابق/ص ٣٧.

٢ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٩٣/٩).

٣ المرجع السابق/(٩٣/٩).

وقد ملك الشافعي قلب خصومه ببراعته في الإجابة، حتى قال بشر المريسي: ((لقد رأيت بالحجاز رجلا ما رأيت مثله سائلا ولا مجيبا؛ يعني الشافعي [1])).

فالشافعي رحمه الله بمثل هذه الفتاوى كان يدعو إلى الله سبحانه على بصيرة ونور، فما خالف السنة أمر بتركه، ومن هجر السنة أمر بهجره، وهي وإن كانت فتاوى إلا أنها دعوة إلى الله سبحانه.

المطلب الثاني: التأليف:

وكما لم يكن لإمام من الأئمة بزوغ في اللغة والأدب كما كان للشافعي؛ فلم يكن لواحد منهم بسطة في التأليف كما كان للشافعي، وكانت إمكانيات الشافعي وقدراته تمكنه من كتابة الكثير والكثير، لكنه ترك ذلك مخافة ملل الناس، وقد أثر عنه: لولا أن يطول على الناس لوضعت في كل مسألة جزء حجج وبيان [2].

ولم يعتن الشافعي بالتأليف إلا في آخر حياته، يقو ابن أبي حاتم أيضا: ((حدثنا بحر بن نصر الخولاني المصري، قال: قدم الشافعي من الحجاز، فبقى أربع سنين بمصر، ووضع هذه الكتب في أربع سنين، ثم مات [3])).

وكان الشافعي في لغته إذا كتب مبدعا، ومن إبداعه أنه كان يكتب للناس بلغتهم لا بلغته وفصحاحته، يقول الربيع: ((لو رأيت الشافعي وحسن بيانه، وفصاحته، لعجبت، ولو أنه ألف هذه الكتب على عربيته التي كان يتكلم بها معنا في المناظرة، لم نقدر على قراءة كتبه لفصاحته وغرائب ألفاظه، غير أنه كان في تأليفه يوضح للعوام [4])).

ولأنه في كتبه ومؤلفاته كان داعية يبغي الخير للناس؛ تمنى لو أن الناس نقلوا هذا العلم وعملوا به حتى ولو لم ينسبوه إليه إليه، فقد نقل عنه رحمه الله قوله: ((ما أبالي لو أن الناس كتبوا كتبي وتفقهوا بها، ثم لم ينسبوها إليّ [5])).

---

١ المرجع السابق/(٩/٩٥).

٢ انظر: طبقات الشافعيين/ابن كثير/ط مكتبة الثقافة الدينية/ط ١٩٩٣م/ ص٣.

٣ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٧٧.

٤ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (١٠/٧٤).

٥ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٧٦.

المطلب الثالث: التعليم والتربية:

استخدم الشافعي رحمه الله التعليم والتربية أسلوبا دعويا، ليس لخاصة تلاميذ وفقط، وإنما لهم ولغيرهم، ومن روائع الشافعي التربوية ما وجهه إلى مؤدب أولاد هارون الرشيد، يقول نهشل بن كثير عن أبيه قال: ((دخل الشافعي يوما إلى بعض حجر هارون الرشيد ليستأذن له ومعه سراج الخادم، فأقعده عند أبي عبد الصمد مؤدب أولاد هارون الرشيد. فقال سراج للشافعي: يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين، وهذا مؤدبهم، فلو أوصيته بهم. فأقبل عليه فقال: ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تكرهه، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه..[1])).

وذكر الربيع في تعلمه من الشافعي أنه قال له مؤدبا ومعلما ومربيا: ((يا ربيع رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بما يصلحك فالزمه، فإنه لا سبيل إلى رضاهم، وأعلم أنه من تعلم القرآن جل في عيون الناس، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم النحو هيب، ومن تعلم العربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم الفقه نبل قدره، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه، وملاك ذلك كله التقوى[2])).

وهذا أسلوب رائع في التربية والتعليم، فهو يصرف تلميذه عن رضا الناس إلى رضا الله، ويوجهه إلى محاسن العلوم والفنون، ويدله على ملاك ذلك كله وهو تقوى الله تعالى.

ولأن طلب العلم يحتاج إلى كبت جماح النفس وترك الكبر والتعالي، فقد كان الشافعي يقول: ((ما طلب أحد العلم بالتعمق وعز النفس فأفلح، ولكن من طلبه بضيق اليد، وذلة النفس، وخدمة العالم؛ أفلح[3])).

ويقول يونس بن عبد الأعلى قال لي الشافعي: ((يا يونس إذا بلغك عن صديق لك ما تكرهه فإياك أن تبادره بالعداوة وقطع الولاية، فتكون ممن أزال يقينه بشك، ولكن ألقه وقل له: بلغني عنك كذا وكذا، واحذر أن تسمي له المبلغ، فإن أنكر ذلك فقل له: أنت أصدق وأبر، لا تزيدن على ذلك شيئا. وإن اعترف بذلك فرأيت له في ذلك وجها لعذر فاقبل منه، وإن لم تر ذلك فقل له: ماذا

---

١ صفة الصفوة/ابن الجوزي/طدار الحديث، القاهرة/ط٢٠٠٠م (٤٣٧/١).

٢ المرجع السابق/(٤٣٦/١).

٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (١١٩/٩).

أردت بما بلغني عنك، فإن ذكر ما له وجه من العذر فاقبل منه، وإن لم تر لذلك وجها لعذر وضاق عليك المسلك فحينئذ أثبتها عليه سيئة، ثم أنت في ذلك بالخيار إن شئت كافأته بمثله من غير زيادة، وإن شئت عفوت عنه، والعفو أقرب للتقوى، وأبلغ في الكرم...[1])).

ترى هل هذا كلام فقيه؟ أم حكيم؟ أم داعية أريب؟

إنه ذلك كله، وإن شئت فقل: هذه الحكمة بعينها، وهل الفقيه الحق وداعية الصدق إلا حكيم نابه يهدي أطايب الكلم لتزيل ظلمات الشبه، وطبيب بارع يصف أنجع الوصفات لذهاب الأدواء.

المطلب الرابع: الشعر:

كانت معرفة الشافعي بالشعر معرفة لغوي متمكن، ولما سأله الرشيد: ((كيف معرفتك بالشعر؟ قال: إني لأعرف طويله، وكامله وسريعه، ومجتثه، ومنسرحه، وخفيفه، وهزجه، ورجزه وحكمه، وغزله، وما قيل فيه على الأمثال تبيانا للأخبار، وما قصد به العشاق رجاء للتلاق، وما رثى به الأوائل ليتأدب به الأواخر، وما امتدح به المكثرون بابتلاء أمرائهم، وعامتها كذب وزور، وما نطق به الشاعر ليعرف تنبيها، وحال لشيخه فوجل شاعره وما خرج على طرب من قائله، لا أرب له، وما تكلم به الشاعر فصار حكمة لمستمعه...[2])).

وقد عرف الشافعي –كما ذكرنا سابقا– بالشعر دون غيره من الفقهاء، وإذا كان الشعر موهبة واكتسابا فلا شك أن الشافعي ((التقت فيه الموهبة والاكتساب، فهو لو شاء لسابق المجلين من شعراء عصره[3])) ولكن انشغال الشافعي بالفقه صرفه عن الإبداع في الشعر، فطغى فقهه على شعره، وقد قال:

ولولا الشعر بالعلماء يزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد[4]

وقد استخدم الشافعي ملكاته الشعرية في الدعوة إلى الله تعالى، وغدت أبياته مرجعا أساسيا يرجع إليه الدعاة والعلماء في الوعظ والإرشاد، والنصح والتوجيه، لقد كان رحمه الله في كل أشعاره ((يحاول أن يجسد تعاليم الإسلام وقيمه الرفيعة، فنرى دعوات متكررة إلى الحق والصدق والحب والوفاء والكرم وغير ذلك من الشيم الإنسانية المتكررة[5])).

---

١ صفة الصفوة/مرجع سابق (٤٣٦/١).

٢ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (٨٧/٩).

٣ الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر/مرجع سابق/ص ٢٨٣.

٤ ديوان الإمام الشافعي/مرجع سابق/ص ٥٤.

٥ المرجع سابق/ص ٧.

فها هو يتحدث عن العفو والترفع عن معاملة اللئيم بمثل خلقه فيقول:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العدوات

إنى أحيى عدوى عند رؤيته لأدفع الشر عني بالتحيات[1]

وأعجب ما في شعر الشافعي أن يمزج بين الفقه والشعر، والفتوى والقافية، والفراسة والدعوة، ومن ذلك ما حكاه الربيع بن سليمان قائلا: كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها فمضى الرجل وتبعته إلى باب المسجد فقلت والله لا تفوتني فتيا الشافعي فأخذت الرقعة من يده فوجدت فيها:

سل المفتي المكي هل في تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فإذا قد وقع الشافعي:

فقلت معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحدث بمثل هذا، فقلت: يا أبا عبد الله تفتي بمثل هذا لمثل هذا الشاب؟! فقال لي: يا أبا محمد هذا رجل هاشمي قد عرس في هذا الشهر –يعني شهر رمضان– وهو حدث السن، فسأل: هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطء؟ فأفتيته بهذا. قال الربيع: فتبعت الشاب، فسألته عن حاله، فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي. قال فما رأيت فراسة أحسن منها[2].

المطلب الخامس: المناظرات:

وكما اشتهر الشافعي بين الفقهاء بالشعر، عرف كذلك بقدرته على المناظرة، وكان في المناظرة رحمه الله من أقدر الناس عليها، ساعده على ذلك علم وافر، وذكاء حاد، وسرعة بديهة، وحجة حاضرة، ولغة جزلة، ورابطة جأش، ومعرفة بآراء المخالف تحصلت بكثرة إطلاعه وشغفه بالقراءاة. يقول النووي: ((مكنه الله تعالى من أنواع العلوم، حتى عجز لديه المناظرون من الطوائف وأصحاب الفنون، واعترف بتبريزه، وأذعن الموافقون والمخالفون فى المحافل الكثيرة المشهورة المشتملة على أئمة عصره فى البلدان، وهذه المناظرات موجودة فى كتبه وكتب العلماء معروفة عند المتقدمين والمتأخرين. وفى كتاب الأم للشافعى، رحمه الله، من هذه المناظرات جُمل من العجائب والنفائس

١ المرجع السابق/ص ٣٩.

٢ طبقات الشافعية الكبرى/السبكي/ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع/ط ثانية/ط ١٤١٣هـ/(٣٠٤/١).

الجليلات، والقواعد المستفادات، وكم من مناظرة واقعة فيه يقطع كل من وقف عليها وأنصف وصدق أنه لم يُسبق إليها[١])).

وقد سأله الربيع يوما من أقدر الناس على المناظرة فقال: ((من عود لسانه الركض فى ميدان الألفاظ، ولم يتلعثم إذا رمقته العيون بالألحاظ[٢])).

وقد شهد الجميع للشافعي بقدرته الفائقة على المناظرة، فهذا ابن عبد الحكم يقول ((ما رأيت الشافعي يناظر أحدا إلا رحمته، ولو رأيت الشافعي يناظرك لظننت أنه سبع يأكلك، وهو الذي علم الناس الحجج[٣])).

وقال هارون بن سعيد الأيلي: ((لو أن الشافعي ناظر على أن هذا العمود الحجر خشب، لغلب؛ لاقتداره على المناظرة[٤])).

وقال الربيع للمزني: ((هذا – يعني الشافعي– لو ناظره الشيطان، قطعه وجدله[٥])).

وكان ما يميز الشافعي في مناظراته هدوء المستمر، فلا ينفعل مهما كانت حجة خصمه أو مخالفه، وإنما يصبر عليه حتى يهدم حجة صاحبه من أساسها، فيعجل مخالفه إلى الغضب والغيظ، يقول ابنه محمد: ((ما سمعت أبى ناظر أحدًا قط فرفع صوته[٦])).

وأنبل ما في مناظرات الشافعي أنه ما كان يريد الغلبة، وإنما يريد إظهار الحق، وقد أثر عنه قوله: ((وددت إذا ناظرت أحدًا أن يُظهر الله الحق على يديه[٧])).

وقد أثمرت مناظراته قبول الناس حجته، وانصرافهم عن مناظريه، يقول أبو الفضل الزجاج: ((لما قدم الشافعي إلى بغداد، وكان في المسجد: إما نيف وأربعون، أو خمسون حلقة، فلما دخل

١ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٥٠/١).

٢ طبقات الشافعية الكبرى/مرجع سابق (١٣٩/٢).

٣ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (٥٠/١٠).

٤ طبقات الحفاظ/السيوطي/ط دار الكتب العلمية – بيروت/ط أولى ط ١٤٠٣هـ/ ص١٥٨.

٥ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(٤٠/١٠)، والوافي بالوفيات/الصفدي/ط دار إحياء التراث – بيروت/ط ٢٠٠٠م/(١٢٣/٢).

٦ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٦٦/١).

٧ المرجع السابق (٥٣/١).

بغداد ما زال يقعد في حلقة حلقة، ويقول لهم: قال الله، قال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا، حتى ما بقي في المسجد حلقة غيره[1])).

المطلب السادس: الوعظ والنصيحة:

سلك الشافعي رحمه الله طريق الوعظ والنصيحة بين الناس، صغيرهم وكبيرهم، أمرائهم وعامتهم، وكان للشافعي أثر فيمن يستمع إليه، ومما يذكر عن الشافعي أنه قال: ((خرجت إلى اليمن وكان بها وال غشوم من قبل الرشيد فكنت أمنعه من الظلم وآخذ على يده وكان باليمن سبعة من العلوية ولا أمر لي معه ولا نهي، فكتب إليه بحملنا جميعا فحملنا فضربت رقاب العلوية، ونظر إلي فوعظته فبكى، وقال: من أنت؟ فقلت: المطلبي. فأعجبه كلامي، وأعطاني خمسين ألفا، ففرقتها في حجابه وأصحابه، ومن على بابه[2])).

وكان كلام الشافعي أصدق ما يوصف به أنه السحر الحلال، يقول يونس بن عبد الأعلى: ((كانت ألفاظ الشافعي كأنها سكر[3])).

وقال أبو جعفر الترمذي، عن يونس: ((ما كان الشافعي إلا ساحرا، ما كنا ندري ما يقول إذا قعدنا حوله[4])).

تلك هي أبرز الوسائل والأساليب التي برزت للشافعي في عصره، فاستخدمها وملك ناصيتها، وكان في كل وسيلة رائدا مبدعا.

المبحث الثالث

مجالات الشافعي الدعوية

كان الشافعي – كما ذكرنا– إماما مبرزا في أكثر من علم، وعلما يقتدى به في غير ما فنّ، ولهذا تعددت مجالات الشافعي الدعوية، وغدا في كل ميدان فارسه، وسأشير هنا إلى أهم المجلات التي أبدع فيها الشافعي على هذا النحو:

١ تهذيب الكمال في أسماء الرجال/المزي/ط مؤسسة الرسالة – بيروت/ط أولى ط ١٩٨٠م/(٣٧٥/٢٤).

٢ الوافي بالوفيات/مرجع سابق (١٢٣/٢).

٣ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٥٨.

٤ المرجع السابق/ص ٦٠.

المطلب الأول: دور الشافعي في الدعوة إلى الإيمان بالله:

ظهر في عصر الشافعي –وقبله وبعده– بعض نفر ينكرون وجود الله سبحانه، ودعوة هؤلاء تحتاج إلى كثير إعمال عقل، ومقارعة هذا النوع من الناس بحجة من صنف ما يحتجون به. وكان هذا أحد مجالات الشافعي الدعوية، وقد ظهرت براعة الشافعي العقلية، وقدرته على المناظرة وإفحام الخصم. ويذكر الشافعي قصة له مع بعض هؤلاء الزنادقة فيقول: ((استقبلني سبعة عشر زنديقاً في طريق غزة فقالوا: ما الدليل على الصانع؟ فقلت لهم: إن ذكرت دليلاً شافياً هل تؤمنون؟ قالوا: نعم، قلت: ورق الفرصاد (التوت) طعمها ولونها وريحها سواء، فيأكلها دود القز فيخرج من جوفها الإبريسم، ويأكلها النحل فيخرج من جوفها العسل، وتأكلها الشاة فيخرج من جوفها البعر، فالطبع واحد وإن كان موجباً عندك فيجب أن يوجب شيئاً واحداً، لأن الحقيقية الواحدة لا توجب إلا شيئاً واحداً، ولا توجب متضادات متنافرة، ومن جوز هذا كان عن المنقول خارجاً وفي التيه والجاً، فانظر كيف تغيرت الحالات عليها فعرفت أنه فعل صانع عالم قادر، يحول عليها الأحوال ويغير التيارات، قال: فبهتوا ثم قالوا: لقد أتيت بالعجب فآمنوا وحسن إيمانهم. وقال الشافعي لقد أتيت قلعة حصينة ملساء ولا فرجة فيها، ظاهرها كالفضة وباطنها كالذهب وجدرانها حصينة محكمة، ثم رأيت الجدار ينشق فيخرج من القلعة حيوان سميع بصير مصوت، فعلمت ضرورة أن الطبيعة لا تقدر على ذلك، وأنه فعل صانع حكيم، فالقلعة هي البيضة والحيوان هو الدجاجة[1])).

المطلب الثاني: دور الشافعي في الذود عن القرآن:

كان للشافعي رحمه الله صولات وجولات في الدفاع عن القرآن، والتاريخ شاهد على أنه وقف سدا منيعا أمام محاولات النيل من القرآن، وكانت مواقفه رحمه الله موجعة لأصحاب الأهواء والبدع، ولما ظهرت بدعة القول بخلق القرآن كان الشافعي لأهلها بالمرصاد، يقول الربيع: ((لما كلم الشافعي حفص الفرد، فقال حفص: القرآن مخلوق. فقال له الشافعي: كفرت بالله العظيم[2])).

وعن الربيع بن سليمان، قال: ((حضرت الشافعي، أو حدثني أبو شعيب، إلا أني أعلم أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم، ويوسف بن عمرو، وحفص الفرد، وكان الشافعي يسميه: حفصا المنفرد، فسأل حفص عبد الله: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، فسأل يوسف، فلم يجبه، وأشار

١ مفيد العلوم ومبيد الهموم/أبو بكر الخوارزمي/ط المكتبة العصرية، بيروت/ط ١٤١٨ هـ/ص ٢٥، ٢٦.

٢ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/٣٠).

إلى الشافعي، فسأل الشافعي، واحتج عليه، فطالت فيه المناظرة، فقام الشافعي بالحجة عليه بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، وبكفر حفص. قال الربيع: فلقيت حفصا، فقال: أراد الشافعي قتلي[١]).

المطلب الثالث: دور الشافعي في الذود عن السنة:

دور الشافعي الدعوي والتأصيلي للسنة النبوية لا ينكر، وقد استحق بجدارة أن يلقب بـ (ناصر الحديث)، هكذا وصفه الذهبي[٢]، وهكذا لقبه أهل بغداد[٣].

ويقول النووي مشيرا إلى جهد الشافعي في نصرة السنة تحقيقا وتدقيقا وغوصا في معانيها: ((ومن ذلك شدة اجتهاده فى نصرة الحديث، واتباع السنة، وجمعه فى مذهبه بين أطراف الأدلة، مع الإتقان والتحقيق والغوص التام على المعانى والتدقيق[٤])). وتقديرا لشأن الشافعي في خدمة السنة والدفاع عنها قال محمد بن الحسن: ((إن تكلم أصحاب الحديث يوما فبلسان الشافعي[٥])). وقال هلال بن العلاء: ((أصحاب الحديث عيال على الشافعي، فتح لهم الأقفال[٦])).

المطلب الرابع: دور الشافعي في الرد على الفرق الضالة:

سبق الحديث عن ثقافة الشافعي الواقعية؛ والتي جعلته يطلع إطلاعا متبحرا فيما تعج به الساحة الإسلامية من أفكار وآراء ومعتقدات، وجزم أبو زهرة على معرفة الشافعي بهذه الفرق وتلك الآراء، وقد حذّر من تلك الفرق، وليس الشافعي العاقل هو الذي ينهى عن أمر لا يعرف موضوعه، ولا يتصوره؛ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره[٧]؟!

نعم هكذا كان الشافعي؛ فلم يكن في عصره من فرقة أو نحلة إلا وخبرها، وعرف أصولها وأفكارها، وأدرك عجرها وبجرها، وفطن كيف يكون الرد عليها. وقد أثر عنه: ((لأن يلقى الله المرء بكل ذنب، خلا الشرك بالله تبارك وتعالى، خير له من أن يلقاه بشيء من الأهواء[٨])).

---

١ توالي التأسيس/مرجع سابق/ ص ٥٦.

٢ انظر: سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/٤٧).

٣ انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال/مرجع سابق (٢٤/٣٧٤).

٤ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(١/٥١).

٥ توالي التأسيس/مرجع سابق/ص ٥٥.

٦ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(١/٦٤).

٧ انظر: الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/مرجع سابق/ص ١٣٨.

٨ سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(١٠/٣٠).

ولهذا كان واضح الحكم على هذه الفرق وأتباعها، سأله تلميذه البويطي: أصلي خلف الرافضي؟ قال: لا تصل خلف الرافضي ولا القدري ولا المرجئ[1].

ولما عرفت الشيعة بالكذب قال فيهم: أجيز شهادة أهل الأهواء إلا الرافضة، فإنهم يشهد بعضهم لبعض[2]، وقال: لم أر أحدا من أصحاب الأهواء أشهد بالزور من الرافضة[3].

المطلب الخامس: دور الشافعي في الجمع بين أهل الرأي وأهل الحديث:

معلوم أن زمان الشافعي رحمه الله وما قبله كان مسرحا لفريقين كبيرين من علماء الأمة: فريق غلب عليه الأخذ بالأثر والعمل به دون إغراق في إعمال الرأي والقياس، وهذا الفريق سمي بأهل الأثر، وفي مقدمتهم: مالك والثوري وابن عيينة. وفريق أعمل الرأي وراعى القياس وإن لم يغفل الأثر، وهؤلاء أطلق عليهم: أهل الرأي، وفي مقدمتهم: حماد وربيعة وأبو حنيفة وغيرهم. وكثيرا ما كانت تقع المناوشات بين الفريقين من التلاميذ والأتباع، وقد أشار إلى ذلك صاحب المدارك فقال: ((وبسبب هذا تحزبت طائفة أهل الحديث على أهل الرأي، وأساءوا فيهم القول والرأي[4])).

وظل الأمر كذلك حتى جاء الشافعي رحمه الله فجمع خير ما عند الفريقين، وجعلهما في إهاب واحد. حتى قال صاحب المدارك: ((فعلم أصحاب الحديث أن صحيح الرأي فرع الأصل، وعلم أصحاب الرأي أنه لا فرع إلا بعد الأصل، وأنه لا غنى عن تقديم السنن وصحيح الآثار أولا[5])). وهذا ما جعل قال محمد بن الحسن ينسب فضل أهل الحديث إلى الشافعي فقال: ((إن تكلم أصحاب الحديث يومًا فبلسان الشافعى، يعنى لما وضع من كتبه[6])).

المطلب السادس: دور الشافعي في الذود عن الصحابة:

كان الشافعي رحمه الله –كغيره من علماء الأمة– محبا للصحابة، مدافعا عنهم، مقدرا لمنزلتهم ومكانتهم، ولهذا نفى أن يفضل أحد أحدا على صديق الأمة، يقول الحارث بن سريج: سمعت إبراهيم بن عبد الله الحجبي يقول للشافعي: ((ما رأيت هاشميا قط قدم أبا بكر وعمر على

---

١ المرجع سابق/(٣١/١٠).

٢ آداب الشافعي ومناقبه/الرازي/ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان/ط أولى، ٢٠٠٣ م/ص ١٨٩.

٣ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/مرجع سابق (١١٤/٩).

٤ ترتيب المدارك وتقريب المسالك/القاضي عياض/ط مطبعة فضالة– المحمدية، المغرب/ط أولى/(٩١/١).

٥ المرجع السابق/(٩١/١).

٦ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٥٠/١).

علي رضي الله عنهم غيرك! قال الشافعي: علي ابن عمي، وأنا رجل من بني عبد مناف، وأنت رجل من بني عبد الدار؛ فلو كانت هذه مكرمة كنت أولى بها منك، ولكن ليس الأمر على ما تحسب[1])).

ولهذا كان الخلفاء الراشدون الأربعة عند الشافعي في مقدمة الصحابة مكانة وفضلا، يقول الربيع: سمعت الشافعي يقول: ((أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي[2])).

ولردع الكارهين للصحابة وتأديبهم حرمهم من الفيء فقال: ((إذا حضر الرافضي الوقعة وغنموا لم يعط من الفئ شيئا لأن الله ذكر آية الفئ ثم قال فيها: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ} [الحشر: ١٠٩] فمن لم يقل بهذا لم يستحق([3])).

المبحث الرابع

أثر الشافعي الدعوي وأسباب انتشار دعوته ومذهبه

الدعوة إلى الله تعالى عقد أبرمه الدعاة بينهم وبين صاحب الدعوة، وقد وعدهم الله تعالى إحدى الحسنيين، إما أن تقر أعينهم في الدنيا فيروا ثمرة دعوتهم، وإما أن يدخر الله لهم أجرهم ليوفوا أجورهم كاملة يوم القيامة. وقد يجمع الله لهم بين الأمرين فيروا ثمرة جهدهم في الدنيا طلابا وأتباعا وانتشارا وقبولا، ويكون لهم الأجر العظيم يوم القيامة. والشافعي من الدعاة الذين كتب الله لهم القبول في الأرض، فظهر أثره بين عالم البشر طلابا وتلاميذ، وأتباعا وجماهير، وكتابة وتأليفا، وقد أحسن محمد بن دريد حين قال يرثيه:

ألم تر آثار ابن إدريس بعده دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد وتنخفض الأعلام وهي فوارع[4]

وفي المطالب التالية سأوضح أهم هذه الآثار.

المطلب الأول: التلاميذ:

نجح الشافعي في تخريج كوكبة من التلاميذ تحمل فكره، وتبث آراءه، وتشيع فقه. وكان جلوس الشافعي مبكرا في مكان العلماء سببا رئيسا في إلتفاف طلاب العلم حوله، حتى غدت حلقته

١ طبقات الشافعية الكبرى/مرجع سابق (١/١٩٤).
٢ تاريخ دمشق/ابن عساكر/ط دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق/ط أولى ١٩٨٤م/(٥١/٣١٦).
٣ المرجع السابق/(٥١/٣١٧).
٤ وفيات الأعيان/مرجع سابق (٤/١٦٨).

وهو في ريعان شبابه تنافس حلق الكبار، وجذب طلاب العلم إليها رغم حداثة سنه، ووجود الكبار من الفقهاء والمفتين من أساطين العلم والفقه. واستطاع الشافعي أن يأسر طلابه بحلو حديثه، وعذب كلامه، وبليغ حجته، وفصيح لسانه، وقوة منطقه، وغدوا من طلابه المقربين، ودعاة مذهبه البارزين، يقول النووي: ((ولما امتحن فى مواطن كثيرة مما لا يحصى من المسائل، فكان جوابه فيها من الصواب والسداد بالمحل الأعلى والمقام الأسنى، عكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار، والأئمة الأخيار من أهل الحديث والفقه وغيرهم، ورجع كثير منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه، وتمسكوا بطريقته كأبى ثور وخلائق من الأئمة، وترك كثير منهم الأخذ عن شيوخهم وكبار الأئمة لانقطاعهم إلى الشافعى حين رأوا عنده ما لا يجدون عند غيره..[1])).

ولم يكن تلاميذ الشافعي في بلدة دون أخرى، وإنما كان له من التلاميذ في كل بلد نزلها أو مكان استوطنه، فكان له في العراق وفي الحجاز، ولما قدم مصر كثر بين يديه التلاميذ، وجثت في حلقه الركب. وقد اعتبر غيره من الفقهاء كثرة تلاميذ الشافعي من ميزاته وفضائله[2].

وقد ذكر ابن حجر في كتاب (توالي التأسيس) أسماء تلاميذ الشافعي، مرتبة ترتيبا أبجديا وبلغ عددهم (١٦٥) تلميذا[3].

المطلب الثاني: الكتب:

أبدع الشافعي رحمه الله تعالى – كما ذكرنا سابقا– في مضمار التأليف، وقد شهد الكبار بمكانة كتب الشافعي، يقول محمد بن علي بن المديني: ((قال أبي: لا تترك للشافعي حرفا واحدا إلا كتبته، فإن فيه معرفة[4])). وقال الجاحظ: ((نظرت في كتب الشافعي فإذا هو در منظوم لم أر أحسن تأليفا منه[5])).

وقد تعجب البعض من كثرة الكتب الشافعي مع صغر عمره، وكيف انتشرت في الناس، وقد أجاب إسحاق بن راهويه عن النقطة الأولى فقال: ((جمع الله تعالى له عقله لقلة عمره[6])). وأجاب عن الثانية أبو موسى الضرير عن كتب الشافعي فقال: ((أرد الله بعلمه فرفعه الله[1])).

---

١ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٤٧/١).

٢ انظر: معجم الأدباء/مرجع سابق/(٢٤١١/٦).

٣ انظر: توالي التأسيس/مرجع سابق/ص ٧٩ وما بعدها.

٤ مناقب البيهقي/مرجع سابق (٢٤٨/٢).

٥ تهذيب التهذيب/ابن حجر/ط مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند/ط أولى، ١٣٢٦هـ/(٢٩/٩).

٦ المرجع السابق/(٢٩/٩).

ولهذا كانت كتب الشافعي مغنما يسعى إليه، وقد ذكروا أن إسحاق بن راهويه تزوج بامرأة رجل – كان عنده كتب الشافعي – مات، لم يتزوج بها إلا للكتب[٢].

ومن عجيب ما يروى عن كتب الشافعي ما ذكره الدارقطنى عن أبى جعفر الترمذى، قال: ((كتبت الحديث تسعًا وعشرين سنة، وسمعت مسائل مالك وقوله، ولم يكن لي حسن رأي في الشافعي، فبينا أنا قاعد في مسجد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، إذ غفوت غفوة، فرأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى المنام، فسألته عن الأئمة إلى أن قلت: يا رسول الله، أكتب رأى مالك؟ فقال: ما وافق حديثى، قلت: أكتب رأي الشافعي؟ فطأطأ رأسه شبه الغضبان لقولي، وقال: ليس هذا بالرأي، هذا رد على من خالف سنتي، فخرجت في أثر هذه الرؤيا إلى مصر وكتبت كُتب الشافعي[٣])). وقد ذكروا أن للشافعي من الكتب مائة وثلاثة عشر كتابا في التفسير والفقه والأدب وغير ذلك[٤].

المبطلب الثالث: الأتباع:

ومن آثار الشافعي الدعوية: كثرة الأتباع؛ فالشافعي رحمه الله دخل مذهبه وفكره كثيرا من بقاع الأرض، ورحب الناس بمذهبه في حياته وبعد مماته، وما زال لمذهبه الغلبة في كثير من البلدان، يقول ابن خلدون: ((وأما الشافعي فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخراسان وما وراء النهر، وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الأمصار....[٥])).

أما في بلاد الشام، فقد حل المذهب الشافعي محل مذهب الأوزاعي بتولي أبي زرعة الشافعي قضاء دمشق، وذلك عند منتصف القرن الرابع الهجري. وفي العراق تزاحم المذهب الشافعي ومذهب أبي حنيفة لمكانة الأخير عند الخلفاء والحكام. وقد كان للمذهب الشافعي مكانة عالية لوجود تلاميذ الشافعي الأولين، ولهجرة كثير من أصحاب الشافعي وعلماء الشافعية إلى العراق، فكانت لهم منزلة لدى الخلفاء وإن كان القضاء عند الحنفية. وفي بلاد خراسان وسجستان وما وراء

---

١ المرجع السابق/(٢٩/٩).

٢ انظر: سير أعلام النبلاء/مرجع سابق/(٧٠/١٠).

٣ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٢٠٣/٢).

٤ انظر: تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٥٣/١).

٥ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر/ابن خلدون/دار الفكر، بيروت ط ثانية، ط ١٩٨٨م/(٥٦٧/١).

النهر، انتشر المذهب الشافعي، وقد ساعد على انتشاره علماء من أمثال محمد بن إسماعيل الشاسي، وعبدالله المروزي، وأحمد بن سيار ويعقوب الإسفراييني[1].

وانتشر هذا المذهب في أقصى بلاد الشرق كإندونيسيا، وماليزيا، والفلبين، وسريلانكا، وأستراليا وبعض أجزاء من الهند. كما انتشر في اليمن وأجزاء من الحجاز.

لكن المذهب لم ينتشر في بلاد المغرب ولا في الأندلس لتمكن المذهب المالكي وغلبته فيها[2].

المطلب الرابع: أسباب انتشار المذهب الشافعي وكثرة أتباعه:

ولا شك أن هناك أسبابا ساعدت على انتشار آراء الشافعي، ودعت الناس إلى قبول مذهبه، ومن أهم هذه الأسباب:

١ – جمع الشافعي بين مدرستي الحديث والرأي، حيث أخذ خيري المدرستين، وجمع بين فقه أبي حنيفة بما عرف من قياس ورأي، وفقه مالك بما عرف من حديث وأثر.

٢ – تقعيد الشافعي لمذهبه ووضعه أصوله وقواعده، وذلك لم يكن لأحد من الفقهاء كما كان للشافعي، وكتب الشافعي كالرسالة والأم خير شاهد على ذلك.

٣ – تبني العديد من الدول للمذهب حيث كان ذلك دافعا قويا لبقاء المذهب حاضرا بين الناس، كما هو الحال في الدولة الأيوبية ودولة المماليك، حيث أصبح للمذهب الشافعي عند الأيوبيين الحظ الأكبر، وفعل مثل ذلك دولة المماليك[3].

٤ – الاعتماد على فقهاء الشافعية في وظيفة القضاء، وهو أمر يقوي المذهب عند العامة، بل ويدفع ببعضهم إلى تعلم هذا المذهب طمعا في القضاء مستقبلا. يقول السبكي عن دمشق: ((ولم يكن يلي قضاء الشام والخطابة والإمامة بجامع بني أمية إلا من يكون على مذهب الأوزاعي إلى أن انتشر مذهب الشافعي فصار لا يلي ذلك إلا الشافعية[4])).

٥– تمكن المذهب من حواضر العالم الإسلامي ومدنه الكبرى، فهم (المقدمون في المساجد الثلاثة الشهيرة، ومنها: أن الكلمة لهم في الأقاليم الفاضلة المشار إليها، وغالب الأقاليم الكبار

١ يراجع: الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/أبو زهرة/ص ٣٩٣ وما بعدها.

٢ انظر: المرجع السابق/ص ٣٩٥ وما بعدها.

٣ انظر: المرجع السابق/ص ٣٩٥.

٤ طبقات الشافعية الكبرى/مرجع سابق (٣١٩/٨).

العامرة، المتوسطة في الدنيا، المتأصلة في الإسلام، وشعار الإسلام بها ظاهر منتظم، كالحجاز واليمن، ومصر، والشام والعراق..[1]).

٦ – كثرة العلماء المجتهدين في المذهب، حيث عرف المذهب الشافعي بكثرة مجتهديه، فمنهم من ظل في المذهب كالمزني كابن سريج وأبو حامد والجويني والماوردي والنووي، ومنهم من خرج عنه كابن المنذر والطبري. ولهذا كثرت كتب الطبقات عند الشافعية، ومنها: طبقات العبادي المتوفى ٤٥٨ هـ، وطبقات الشيرازي المتوفى ٤٧٦ هـ، وطبقات ابن الصلاح ت ٦٤٣ هـ، وطبقات السبكي المتوفى ٧٧١ هـ.... وغيرها[2].

٧ – خدمة المذهب، حيث اعتنى عدد من علماء المذهب الشافعي بفقه إمامهم نقلا وتعليما ونشرا وتحريرا وضبطا، حتى غدا لأحدهم وهو البيهقي منة على شيخه الشافعي؛ قال الجويني: ما من شافعي إلا وللشافعي في عنقه منة إلا البيهقي[3].

٨ – سهولة الترتيب والتبويب لكتب الشافعية، حيث أضحت المعلومة سهلة الحصول عليها، وهذا ناتج من الخدمة الجليلة التي قام بها علماء المذهب ومجتهدوه[4].

٩ – كون الشافعي من آل البيت؛ فهذا أمر لم يجتمع لغيره من الأئمة، وحب آل البيت أمر مفطور في المسلمين، وقد يكون هذا أحد أسباب إقبال الناس على مذهبه[5].

١٠ – تمتع الشافعي بشخصية جمعت من المؤهلات ما يجذب الناس إليها حتى ترك البعض مذهبهم واتبعوا مذهبه، ومن ذلك محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، الذي كان من أئمة المذهب المالكي وتركه واتبع الشافعي ثم عاد إلى مذهب مالك بعد وفاة الشافعي[6].

---

١ طبقات الشافعية/الإسنوي/ط دار الكتب العلمية/ط أولى ١٩٨٧م (٤/١).

٢ يراجع: نهاية المطلب في دراية المذهب/الجويني/ت: عبد العظيم الديب/ط وزارة الأوقاف القطرية/ط أولى ٢٠٠٧م (١٢٠/١).

٣ طبقات الشافعية الكبرى/مرجع سابق (١٠/٤).

٤ يراجع: نهاية المطلب/مرجع سابق (١٢٥/١).

٥ تهذيب الأسماء واللغات/مرجع سابق/(٤٩/١).

٦ يراجع: سير أعلام النبلاء/مرجع سابق (٤٩٩/١٢).

الخاتمة

(نتائج وتوصيات)

وبعد هذا التطواف السريع في حياة عالم من أعلام الأمة وإمام من أئمتها؛ فإنني أضع هنا أهم النتائج والتوصيات التي توصلت هذه الدراسة:

أولا: النتائج:

١. أن العلاقة بين الفقه والدعوة علاقة متلازمة، فلا فقه بغير دعوة، ولا دعوة بغير فقه.

٢. أن الشافعي جمع من المواهب والأدوات ما يؤهله ليكون داعية حق، ولسان صدق، وإمام هدى، وهو بحق في الذروة من قادة الفكر وزعماء الآراء.

٣. أن الشافعي استخدام من وسائل عصره –كالفتوى والشعر والمناظرة والتربية– ما يخدم دعوته وفكرته، فمارس كل ما تيسر له وملك ناصيته، وكان في كل وسيلة رائدا مبدعا.

٤. تعددت مجالات الشافعي الدعوية، وغدا في كل ميدان فارسه، فكان له في الدعوة إلى الله نصيب، وفي الدفاع عن القرآن والسنة والصحابة نصيب، كما كان له نصيب وافر في الجمع بين أهل الدراية وأهل الرواية...

٥. أن الشافعي كان من الدعاة الذين كتب الله لهم القبول في الأرض، فظهر أثره في عالم البشر طلابا وتلاميذ، وأتباعا وجماهير، وكتابة وتأليفا.

ثانيا: التوصيات:

١. الاهتمام بالجانب الدعوي عند فقهاء الأمة، فكما كان لهم الإمامة في في الفقه، فإن للكثير منهم إمامة في الدعوة إلى الله تعالى.

٢. العمل على إيجاد نماذج من الدعاة والفقهاء تجمع بين الفقه والدعوة، وبين المنبر والميدان؛ فالأمة ليست في حاجة إلى فقيه من منعزل عن دنيا الناس، وليست في حاجة كذلك إلى داعية يجهل أصول العلم. فالأول علمه لنفسه وبعض طلابه، والثاني ضرره أكثر من نفعه.

المراجع

١. آداب الشافعي ومناقبه/ الرازي/ ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان/ ط أولى، ٢٠٠٣ م.

٢. إعلام الموقعين / الإمام ابن القيم/ ط دار الكتب العلمية – بيروت/ ط أولى ط ١٩٩١م.

٣. الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر/ عبد الغني الدقر/ ط دار القلم دمشق/ ط ثالثة ط ١٩٨٧م.

٤. تاريخ دمشق/ ابن عساكر/ ط دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق/ ط أولى ١٩٨٤م.

٥. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي/ السيوطي/ ط دار طيبة.

٦. ترتيب المدارك وتقريب المسالك/ القاضي عياض/ ط مطبعة فضالة – المحمدية، المغرب/ ط أولى.

٧. تهذيب الأسماء واللغات/ النووي/ ط دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٨. تهذيب التهذيب/ ابن حجر/ ط مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند/ ط أولى، ١٣٢٦هـ.
٩. تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ المزي/ ط مؤسسة الرسالة – بيروت/ ط أولى ط ١٩٨٠م.
١٠.توالي التأسيس/ توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس/ ابن حجر/ ط دار الكتب العلمية/ ط ١٩٨٦م.
١١.ثقافة الداعية/ يوسف القرضاوي/ ط مكتبة وهبة/ ط عاشرة ط ١٩٩٦م.
١٢.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء/ أبو نعيم/ ط دار السعادة القاهرة/ ط ١٩٧٤م.
١٣.ديوان الإمام الشافعي/ ت: نعيم زرزور/ ط دار الكتب العلمية/ ط أولى ١٩٨٤م.
١٤.ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر/ ابن خلدون/ دار الفكر، بيروت/ ط ثانية، ط ١٩٨٨م.
١٥.الرسالة للشافعي/ ت: أحمد شاكر/ ط مكتبة الحلبي، مصر/ ط أولى ط ١٩٤٠م.
١٦.سير أعلام النبلاء/ الذهبي/ ط مؤسسة الرسالة/ ط ثالثة ط ١٩٨٥م.
١٧.الشافعي حياته وعصره آراؤه وفقهه/ محمد أبو زهرة/ ط دار الفكر العربي/ ط أولى ط ١٩٧٨م.
١٨.صفة الصفوة/ ابن الجوزي/ طدار الحديث، القاهرة/ ط٢٠٠٠م.
١٩.طبقات الحفاظ/ السيوطي/ ط دار الكتب العلمية – بيروت/ ط أولى ط ١٤٠٣هـ.
٢٠.طبقات الشافعية الكبرى السبكي/ ط هجر للطباعة والنشر والتوزيع/ ط ثانية/ ط ١٤١٣هـ.
٢١.طبقات الشافعية/ الإسنوي/ ط دار الكتب العلمية/ ط أولى ١٩٨٧م.
٢٢.طبقات الشافعيين/ ابن كثير/ ط مكتبة الثقافة الدينية/ ط ١٩٩٣م.
٢٣.في ظلال القرآن/ سيد قطب/ ط دار الشروق/ ط٩ ط ١٩٨٠م.
٢٤.لقاءات ومحاورات / يوسف القرضاوي/ ط مكتبة وهبة القاهرة/ ط أولى ط ١٩٩٢م.
٢٥.مجموع الفتاوى/ ابن تيمية/ ط مجمع الملك فهد/ ط ١٩٩٥م.
٢٦.مرآة الجنان وعبرة اليقظان/ عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي/ ط دار الكتب العلمية، بيروت/ ط أولى/ ط ١٩٩٧م.
٢٧.معجم الأدباء/ ياقوت الحموي/ ط دار الغرب الإسلامي، بيروت/ ط أولى ١٩٩٣ م.
٢٨.مفيد العلوم ومبيد الهموم/ أبو بكر الخوارزمي/ ط المكتبة العصرية، بيروت/ ط ١٤١٨ هـ.
٢٩.مناقب الشافعي/ البيهقي/ ت: السيد أحمد صقر/ ط دار التراث القاهرة/ ط أولى ١٩٧٠م.
٣٠.نهاية المطلب في دراية المذهب/ الجويني/ ت: عبد العظيم الديب/ ط وزارة الأوقاف القطرية/ ط أولى ٢٠٠٧م.
٣١.الوافي بالوفيات/ الصفدي/ ط دار إحياء التراث – بيروت/ ط ٢٠٠٠م.
٣٢.وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ ابن خلكان/ ت: إحسان عباس/ ط دار صادر بيروت.